إشكاليّة ظاهرة التّضادّ في اللّغة العربيّة

The problematic of the phenomenon of antithesis in the Arabic language

أ. ضياء عبد الرّزاق الشّيخ♥

أ. د. إلياس عطا الله

تاريخ الاستلام: 27-06-2024 تاريخ القبــول: 18-07-2024

الملخّص: الأصل في اللّغة العربيّة أن يكون كلّ لفظ دالًّا على مسمًّى بعينه، إلّا أنّه دعت الحاجة إلى بروز ظواهر لغويّة خالفت هذا الأصل، منها ظاهرة التّضادّ التي عُني بها اللّغويون العرب وغير العرب قديمًا وحديثًا وسيكون التّضادّ بمفهومه القديم أي اللّفظ الذي يحمل المعنى وضدّه، محطّ دراستنا؛ وذلك أنّه مثار الخلاف بين علماء اللّغة القدماء والمحدثين؛ إذ اختلفوا في هذه الظّاهرة كما اختلفوا في ظواهرَ لغويّة أخرى، وتباينت آراؤهم في شأنها فانقسموا بين من أنكره ومن أثبته ومن ضيّق فيه، وسنعرض لآراء كلّ جماعة منهم عرضًا نقديًّا وصولا إلى النّتائج التي توصّل إليها البحث.

فما هو التّضادّ؟ وما علاقته بالمشترك اللفظيّ؟ وما الإشكاليات التي أثيرت حوله عند علماء العربيّة المتقدّمين والمتأخّرين؟ وما أسباب نشأة التّضادّ؟ وهل اقتصرت معرفته على اللّغة العربيّة؟ وهل ضمّ القرآن الكريم بين دفّتيه ألفاظًا متضادّة؟

♥معهد الدّوحة للدّراسات العليا، قطر، البريد الإلكتروني:daodia44@gmail.com (المؤلّف المرسل).

الكلمات المفتاحيّة: إشكاليّة التّضاد؛ نشأة التّضاد؛ اللّغات السّاميّة؛ اللّغويون المتقدّمون والمتأخّرون.

Abstract: The principle in Arabic language is that each word should signify a specific meaning. However, practical necessity has led to the emergence of linguistic phenomena that contradict this principle, including the phenomenon of antithesis, which has been studied by linguists, both Arab and non-Arab, ancient and modern alike. Antithesis, in its traditional sense, refers to a word that carries a meaning and its opposite. This has been a subject of debate among linguists throughout history, differing in their views on this and other linguistic phenomena. They have varied in their opinions, with some rejecting it, others affirming it, and some narrowing its scope. We will critically examine the viewpoints of each group, leading to the conclusions reached by research.

Keywords: Antithesis problem; emergence of antithesis; Semitic languages; advanced and contemporary linguists.

مقدّمة: سبحان الذي جعل العربيّة لنا لسانًا وزادها بسطةً وبيانًا وأنزل بحروفها الذّكر قرآنًا، وبعد، فإنّ الأصل في اللّغة العربيّة أن يكون كلّ لفظ دالًّا على مسمًّى بعينه، إلّا أنّه دعت الحاجة إلى بروز ظواهر لغويّة خالفت هذا الأصل، منها ظاهرة التّضادّ التي عُني بها اللغويون العرب وغير العرب قديمًا وحديثًا، وصنّفوا فيها الكثير من المؤلّفات، إذ بدأ التّأليف في هذا النّوع من اللّغة في أواخر القرن الثّاني وأوائل القرن الثّالثّ الهجريّ.

فما هو التّضادّ؟ وما علاقته بالمشترك اللفظيّ؟ وما الإشكاليات التي أثيرت حوله عند علماء العربيّة المتقدّمين والمتأخّرين؟ وما أسباب نشأة التّضادّ؟ وهل

اقتصرت معرفته على اللّغة العربيّة؟ وهل ضمّ القرآن الكريم بين دفّتيه ألفاظًا متضادّة؟

تعريف الأضّداد:

الأضداد لغة: الضّدّ كلّ شيءٍ ضادّ شيئًا ليغلبه، السّواد ضدّ البياض والموت ضدّ الحياة، إذا جاء هذا ذهب ذلك، وضدّ الشّيء وضديده خلافُه وضدّه أيضًا مثله، والجمع أضداد. (ابن منظور، 1414هـ، 263/3).

اصطلاحًا: "يعدّ التّضاد جنسا من أجناس الكلام عند العرب، يُقصد به أن تؤدّي اللّفظة الواحدة معنيّين مختلفين متضادين تنبئ كلّ لفظة عن المعنى الذي تحتها وتدل عليه وتوضح تأويله" (السّجستاني، 1991، 75)، وقد عدّ بعض العلماء الأضداد نوعًا من المشترك اللفظيّ ودلّلوا على ذلك بأنّ بعض ألفاظه تحمل المعنى وضدّه. (عكاشة، 2002، 72).

نستشفّ من التّعريفين اللغوي والاصطلاحيّ عدّة أمور:

-أنّ هناك رابطًا يجمع بينهما، فلم ينبتّ المعنى الاصطلاحيّ عن اللغويّ فالأخير ذكر أنّ كلمة الضّدّ من الأضداد، تحمل معنيّين الاختلاف والمثل اختار علماء اللّغة أحدهما وهو الاختلاف، وخصّوا به ظاهرة التّضادّ وذلك أن تحمل اللفظة الواحدة معنيّين مختلفين متضادّين، نحو: (الجون) وتعني الأبيض والأسود، وأذهب إلى أنّه ليس في كلمة ضدّ تضادّ فلا تعني سوى الاختلاف أمّا عن ورودها في لسان العرب بمعنى المثل، فأرى أنّ القصد مثله في رتبة الاختلاف، فمثلا صحيح أنّ القوة والجهل مختلفان لكنّهما ليسا متضادّين، أي ليسا في الرّتبة نفسها من الاختلاف فالقوّة ضدّها الضّعف والجهل ضدّه العلم؛

-لفت التّعريفان إلى وجود أنواع للتضادّ: التّضادّ باختلاف اللفظ، نحو الموت والحياة، والتّضادّ باتّحاد اللفظ، نحو السّدفة وتعني الضّوء والظّلمة، وقد وقف أحد الباحثين عند هذه الأنواع؛ ليبّن لنا أنّ مفهوم التّضادّ عند علماء اللّغة

المحدثين يتمثّل في وجود لفظين يختلفان نطقًا ويتضادّان معنًى، والمفهوم القديم هو اللفظ المستعمل في معنيّين متضادّين. (عمر، 1998، 91)؛

–الأمر الثّالثّ وهو علاقة التّضادّ بالمشترك اللفظيّ، وسنقف عند هذه العلاقة لنبيّنها علّنا نزيل اللبس في شأنها.

التّضادّ والمشترك اللفظيّ: المشترك اللفظيّ: هو اللفظ الدّالّ على معنيّين فأكثر، "ومنه اتّفاق اللفظ واختلاف المعنى، كقولنا: عين الماء وعين المال وعين الميزان" (ابن فارس 1997، 152) أي أنّ المشترك هو لفظ واحد يحمل معانيَ متشابهة أو معانيَ مختلفة أي متضادّة، وعليه فإنّ للتضادّ علاقة واضحة بالمشترك اللفظيّ، والذي يميّز التّضادّ من المشترك اللفظيّ، أنّ التّضادّ لفظ واحد يحمل معنيّين مختلفين بالضّرورة، في حين أنّ المشترك يحمل معانيَ لا يشترط فيها التّضادّ، فنصل إلى أنّ كلّ تضادٍّ مشترك لفظي وليس كلّ مشتركٍ تضادًّا.

وسيكون التّضادّ بمفهومه القديم أي اللفظ الذي يحمل المعنى وضدّه، محطّ دراستنا؛ وذلك أنّه مثار الخلاف بين علماء اللّغة القدماء والمحدثين؛ إذ اختلفوا في هذه الظّاهرة كما اختلفوا في ظواهرَ لغويّة أخرى، وتباينت آراؤهم في شأنها فانقسموا بين من أنكره ومن أثبته ومن ضيّق فيه، وسنعرض لآراء كلّ جماعة منهم، مع إيراد عناوينَ فرعيّة؛ في محاولة للتصنيف دون الحسم في المسألة.

إشكاليّة التّضادّ عند بعض اللّغويّين المتقدّمين: من المنكرين للتضاد المنكرون لهذه الظّاهرة فيما وصلنا قلّة، في مقدّمتهم أحد شيوخ ابن سيده، إذ جاء في المخصّص "وقد كان أحد شيوخنا ينكر الأضداد" (ابن سيده، 1996 173/4)، وقد ألّف ابن درستويه كتابًا أسماه (إبطال الأضداد) كما ذكر السّيوطيّ، إلّا أنّه لم يصل إلينا، ونلمح إشارات ابن درستويه إليه في "التّصحيح"، فهذا العالم الذي رفض المشترك اللفظيّ ليس غريبًا عليه أن ينكر الأضداد، والحقيقة أنّه لم يكشف عن العلّة في إنكاره للأضداد، وإنّما استشفّ

(السّيوطيّ، 1998، 311/1) رأيه من مقولته وهي: " النّوء: الارتفاع بمشقة وثقل ومنه قيل للكوكب قد ناء إذا طلع، وزعم قوم من اللّغويين أنّ النّوء السّقوط أيضًا وأنّه من الأضداد وقد أوضحنا الحجّة عليهم في ذلك"، ونُقل عنه سبب إبطاله للأضداد، وذلك أنّ العرب لا يأتون باسم واحد للشيء وضدّه. (أبي الطّيب، 1996، 18)، ونقل عنه (السّيوطيّ، م. س، 303/1) في موضع آخر، قوله: "وإنّما اللّغة موضوعة للإبانة عن المعاني، فلو جاز للفظ واحد الدّلالة على معنيين مختلفين أو أحدهما ضد الآخر لما كان ذلك إبانة بل تعميّة وتغطيّة، ولكن قد يجيء الشّيء النّادر من هذا العلل".

وممّن أنكر الأضداد أيضًا ثعلب، يقول: ليس في كلام العرب ضدّ لأنّه لو كان فيه ضدّ لكان الكلام محالًا لأنّه لا يكون الأبيض أسودًا ولا الأسود أبيضًا وكلام العرب وإن اختلف اللفظ فالمعنى يرجع إلى أصل واحد، فالجون هو الأسود وإذا اشتد بياض الشّيء حتى يعشي البصر رئى كالأسود. (الجواليقي د.ت، 82).

نتبيّن من آراء من أسميناهم منكرين، أنّهم اتّخذوا هذا الموقف انطلاقًا من أنّ التّضادّ يؤدّي إلى تغطيّة المعنى، وأنّ واضع اللّغة حكيم لم يضع اللفظ لضدّين، وأمّا ما وجدوه من ألفاظ التّضادّ فقد عملوا على تأويله.

من المثبتين للتضادّ: إنّ المثبّتين لهذه الظّاهرة هم أكثر أهل العربيّة، منهم الخليل وسيبويه وابن سيده والثّعالبيّ والمبرّد والسّيوطيّ، وقد أفرد بعضهم كتبًا للأضداد، أمثال قطرب والأصمعيّ وابن السّكيت والسّجستانيّ والأنباريّ.

يعدّ ابن الأنباريّ من أهمّ المثبتين لظاهرة التّضادّ، إذ ابتدأ مقدّمة كتابه بتيان فحواه، فقال "هذا كتاب ذكر الحروف التي توقعها العرب على المعاني المتضادّة، فيكون الحرف منها مودّيا عن معنيّين مختلفين" (ابن الأنباريّ،1987–1) وبعد أن يورد التّعريف يلج ليذكر الدّواعي لتأليف هذا الكتاب، ثمّ يضع بين أيدينا مادّة غزيرة معزّزة بالشّواهد عن وقوع التّضادّ في

كلام العرب، والدّواعي التي أدّت إليه، ونجده في موضع يردّ على من زعم أنّ التّضادّ يؤدّي إلى تغطيّة المعنى، يقول: "إنّ كلام العرب يصحح بعضه بعضًا ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه، فجاز وقع اللفظة على المعنيّين المتضادين، لأنّه يتقدمها ويأتي بعدها ما يدلّ على خصوصيّة أحد المعنيين المتضادين دون الآخر" (ابن الأنباري م. ن، 2).

ويعدّ أحمد بن فارس من المثبتين للأضّداد في اللّغة العربيّة، إذ أقرّ بوجودها وألّف كتابًا في إثباتها، ردّ فيه على مذهب ابن درستويه، فقال: "وأنكر ناس هذا المذهب وأنّ العرب تأتي باسم واحد لشيء وضده، وهذا ليس بشيء وذلك أنّ الذين رووا أنّ العرب تسمي السّيف مهنّدا، والفرس طِرفا هم الذين رووا أنّ العرب تسمي المتضادّين باسم واحد، وقد جرّدنا في هذا كتابا، ذكرنا فيه ما احتجوا به، وذكرنا ردّ ذلك ونقضه" (ابن فارس، م. س، 60).

وأثبت (أبو الطّيب، م. س) هذه الظّاهرة وألّف كتابًا أسماه (الأضداد في كلام العرب) أورد فيه مادّة جمّة تدلّل على وجود التّضادّ في لغة العرب. وتبرز أهميّة كتابه هذا في أنّه جمع ما جاء به الباحثون السّابقون في هذه الظّاهرة وعمل على نقد آرائهم، وإفراد فصول لكشف مغالاة بعضهم.

ومن المهمّ أن نشير إلى أنّ أنصار التّضادّ يذهبون إلى أنّه إذا وقع الحرف على معنيّين متضادّين، فمحال أن يكون العربيّ، أوقعهما عليهما بمساواة بينهما، إذ إنّ التّضادّ في المعاني، ينشأ أوّلا في لهجات مختلفة ثمّ تستعير كلّ لهجة المعنى من الأخرى، وبذلك يجتمع المعنيان المتضادّان في هذه اللّهجة ولو اتّسع المقام لناقشنا مدى تطبيقهم لما ذهبوا إليه.

نستشفّ من عرضنا لآراء علماء اللّغة في التّضادّ، أنّ كلّ فريق حاول أن ينافح عن اللّغة العربيّة إلى درجة حدت به إلى الغلوّ، إذ أشار ابن الأنباريّ في مقدّمة كتابه، إلى أهل البدع والزّيغ الذين اتّخذوا من ظاهرة التّضادّ حجّة ليرموا

العربيّة بقلّة البلاغة، وكثرة الالتّباس، فاندفع ليردّ عليهم حتى بلغ به الأمر إلى تأويل ألفاظ ليلبسها ما لا يليق بها، ولم يقتصر هذا العمل على ابن الأنباريّ فإذا نظرنا إلى كتاب (الأضداد في كلام العرب) نجد أنّ صاحبه ذيّله بألفاظ جعلها من سبقه من العلماء في الأضّداد، وقال صراحة: "ونرى من سبقنا إلى هذا الكتاب قد أدخل فيه ما ليس فيه" (أبي الطّيّب، م. س) ومن ذلك مثلًا السّرّ كتمانك الشّيء ثمّ سمّي الجِماع سرًّا، لأنّه يُخفى ويُسرّ.

يُحسب للمثبتين والمنكرين اجتهادهم الذي لم يأتِ من فراغ، والذي نراه أنّ العربيّة عرفت هذه الظّاهرة، ويؤكّد رؤيتنا هذه أنّنا لمحنا في بعض أقوال رأس المنكرين للتضادّ – ابن درستويه–ما يدلّ على وجودها في اللّغة، إلّا أنّه لا يريد أن يصرّح بذلك؛ ربّما خوفًا على العربيّة من أن تحفّ بها الاتّهامات من أنّها لغة غامضة أو غير قادرة على الإبانة. وبناءً على ذلك علينا ألّا ننساق تمامًا وراء هذا الفريق أو ذاك، وإنّما ننظر لحججهم نظرة ناقدة.

إشكاليّة التّضادّ عند بعض اللغويّين المتأخّرين: نظر الباحثون اللّغويّون في آراء علماء اللّغة المتقدّمين، وأدلوا برأيهم في مسألة التّضادّ، فنلحظ الاختلاف بينهم في شأن هذه الظّاهرة، فقد ختم (إبراهيم أنيس، 1965، 185) فصله عن التّضادّ، بقوله: إذا حذفنا من أمثلة التّضادّ ما يدلّ على التّكلّف، فلا يبقى لدينا إلاّ نحو عشرين كلمة في كل اللّغة، ثمّ إنّه تنبّأ بانقراض كلمات التّضادّ من اللّغة، في حين ذكر (أحمد مختار عمر، م. س، 204) أنّه إذا أسقطنا بعض الأمثلة التي لا تعدّ من التّضادّ، يظلّ عندنا قدر كبير من ألفاظ الأضّداد تتجاوز ما توقّف عنده بعضهم وهو عشرون لفظًا، وذهب (علي عبد الواحد وافي، 2004، 149) إلى أنّه من التّعسّف إنكار التّضادّ ومحاولة تأويل جميع أمثلته لإخراجها من هذا الباب، كما أنّه من التّعسّف أيضًا تأويل ألفاظ لإدخالها فيه، ونرى رأيًا مشابهًا لدى (إميل بديع يعقوب، 1982، 182).

في مقابل هؤلاء اللّغويّين الذين لا ينكرون وجود التّضادّ في العربيّة، وإنّما يختلفون في درجة التّعسّف في تناول هذه الظّاهرة، نجد منصور فهمي يجتهد في عرض أسباب التّخلّص من الأضّداد؛ لأنّها برأيه من المباحث التي أثارت مشكلات لا طائل منها؛ لأنّ من لا يعرف العلل يظنّ أنّ اللفظ الواحد وُضع لمعنيّين، ولأنّ هذه المباحث تعدّ من الموات اللغويّ. (الجبوري، 1973).

ولم يكتفِ اللغويّون المتأخّرون بإدلاء رأيهم في هذه الظّاهرة، وإنّما اجتهدوا في استنباط أسباب نشأتها من كتب المتقدّمين.

أسباب نشأة التّضادّ: إنّ الأصل في كلمات العربيّة –كما أسلفنا–أن تدلّ على معنًى واحد، إلاّ أنّ تعاقب السّنين على اللّغة العربيّة جعل ألفاظها تمرّ بظروف وسياقات مختلفة أدّت إلى ظهور ألفاظ تحمل معانيَ متضادّة، ونوجز أبرز العوامل التي أدّت إلى بروز هذه الظّاهرة في اللّغة العربيّة:

–التّعميم للمعنى الأصليّ: قد يكون المعنى الأصليّ للكلمة عامًّا، ثمّ يتخصّص في لهجة من اللهجات، كما يتخصّص في اتّجاه مضادٍّ في لهجة أخرى، وهكذا يصبح للفظة الواحدة معنًى عامّ، وينشأ له معنيان آخران، نشأ أحدهما في لهجة والآخر في لهجة أخرى، ما أدّى إلى ظهور دلالتين متضادّتين في لهجتين أو بيئتين، نحو كلمة (الذّفر) إذ ذكر أبو الطّيب: أنّ هذه اللفظة تحمل معنيين، الرّيح الطّيبة والرّيح المنتنة، وأورد قطرب، "الذّفر: المسك.. ويقال لنتن الإبط: الذّفر، فكأنّه ضد"، يتبدّى أنّ المعنى الأصليّ للكلمة هو (الرّيح) على نحو ما ذهب إليه ابن الأنباريّ إذ قال: "الذّفر: حدّة الرّيح في الطّيب والنّتن جميعًا"، ومن هذا القبيل أيضًا كلمة (السّدفة) إذ هي عند قبيلة تميم بمعنى الظّلمة وعند قيس بمعنى الضّوء، والتّفسير لذلك ما أورده ابن الأنباريّ من أنّ أصل السّدفة: السّتر، فإذا أقبل النّهار ستر ضوءه الليل وإذا أقبل الليل ستر ضوء النّهار. (عبد التّوّاب، 1999، ص 342 345؛ معتوق، 2015)؛

–التّفاؤل: يؤثّر تفاؤل الإنسان وتشاؤمه على عاداته في التّعبير، فإذا أراد التّعبير عن معنًى سيّئ تشاءم من ذكر الكلمة الخاصّة به، وفرّ منها إلى غيرها، وكنّى عنها بكلمات حسنة قريبة إلى الخير، وأقرب المعاني إلى كلمات التّشاؤم هي أضّدادها من كلمات التّفاؤل (أنيس، م. س، 180)، نحو كلمة (المفازة) ومعناها النّجاة والمهلكة، الأصالة للمعنى الأوّل والمعنى الثّاني أطلق عليها على سبيل التّفاؤل، وقد تنبّه إلى هذا علماء اللّغة القدماء، فقالوا: وإنّما قيل للعطشان: ناهل، على سبيل التّفاؤل، كما يقال: المفازة، للمهلكة، على التّفاؤل، وللملدوغ: سليم، ونحو ذلك، (ابن الأنباري، م. س، 105)؛

–اقتراض العرب بعض الألفاظ من اللغات المجاورة: إذ تختلف إيحاءات المعنى الأصليّ ما يؤدّي إلى التّضادّ في العربيّة، نحو ما ذكره (Giese) من أنّ لفظ (جلل) قد أخذته العربيّة من العبريّة، وهو فيها بمعنى دحرج والشّيء المدحرج يكون ثقيلًا أو خفيفًا؛ فهذه الإيحاءات المتضادّة أعطت العربيّة معنيّين هما عظيم وحقير. ويمكن أن تقترض العربيّة أحد معنييّ اللفظ المتضادّين فقط نحو كلمة: (بسْل) العربيّة التي تعني الحلال والحرام، وهي في العبريّة بمعنى الحرام، وفي الآراميّة بمعنى غير الصّالح (عمر، م. س، ص 204، 205)؛

–التّهكّم: يعدّ التّهكّم وما يصاحبه من السّخريّة واحدًا من العوامل التي تودّي إلى قلب المعاني، وتغيير الدّلالة إلى ضدّها؛ حيث يتمّ استعمال ألفاظ الاستحسان في سياقات التّهكّم، نحو كلمة: (التّعزير) ففي الأصل تدلّ على التّعظيم والتّوقير، واستعملت في معنى التّعنيف والتّأديب؛ استهزاءً بالمذنب (عبد التّواب، م. س، 349) ومن ذلك قول أحد علماء اللّغة "وممّا يشبه الأضداد أيضًا قولهم للعاقل: يا عاقل، وللجاهل إذا استهزءوا به: يا عاقل" (ابن الأنباري، م. س،157)؛

–الخوف من الحسد: نابع من ارتباط الكلمة بالسّحر والإصابة بالعين عند الشّعوب القديمة، والتي ما زلنا نرى أثرها حتى وقتنا الحاضر؛ ففي هذه الحال

يبتعد المرء عن وصف الأشياء بالحسن والجمال؛ حتى لا تصاب بالعين، وهذا يفسّر بعض الكلمات المتضادّة، نحو كلمة: (شوهاء) تطلق على المهرة إذا كانت قبيحة أو جميلة، وإنّما أُطلق عليها اسم شوهاء درءًا للحسد، يقول السّجستانيّ: "لا أظنّهم قالوا للجميلة شوهاء، إلاّ مخافة أن يصيبها عين" (عبد التّواب، م. س، 350؛ الأدويّة، 2011، 31)؛

-الاتّساع: الأصل في اللفظ أن يدلّ على معنًى واحد، ثمّ يتفرّع عنه معنًى آخر على سبيل الاتّساع، من ذلك يطلق لفظ الصّارخ على المغيث والمستغيث وسُمّيا بذلك "لأنّ المغيث يصرخ بالإغاثة والمستغيث يصرخ بالاستغاثة فأصلهما من باب واحد" (عمر، م. س، 206)؛

-التّطوّر اللغويّ: ويعني أن تكون هناك كلمتان مختلفتان بمعنيّين متضادّين، فتتطوّر أصوات أحدهما بصورة تنطبق مع الأخرى تمامًا، "فيبدو الأمر كما لو كانت كلمة واحدة لها معنيان متضادّان" نحو: قول بني عقيل: "لمقت الكتاب" أي كتبته، وقول سائر قيس: "لمقت الكتاب" أي محوته، وعلّة ذلك أنّ نمق تعني كتب فأبدلت النّون لامًا؛ فصارت الكلمة لمق. (عبد التّوّاب م. س، 351؛ عمر، م. س،210).

نتبيّن ممّا أوردناه، أنّ العرب عرفت التّضادّ؛ لدواعٍ اجتماعيّة ولغويّة، حتى غدا الأمر ظاهرة تستحقّ الدّرس والبحث، ولو كان الأمر على ما قال (أنيس م. س، 185) من أنّه إذا حذفنا من أمثلة التّضادّ ما يدلّ على التّكلّف والتّعسّف في اختيارها فإنّه لا يبقى منها سوى عشرين كلمة في اللّغة تفيد التّضادّ بمعناه العلميّ الدّقيق، وبناء على هذا القول قرّر أنيس أنّ هذا المقدار لا يستحقّ عنايّة كبيرة.

نرى أنّ أنيس وفّق في قوله هذا من ناحيّة وجانب الصّواب من نواحٍ أخرى، فإذا كانت الأضداد بهذا المقدار فلم حازت اهتمام الباحثين القدماء والمعاصرين؟ ثمّ هل اللّغة العربيّة التي لا تُعرف شطآنها، من العلوم التي يمكن

إخضاعها لمعيار علميّ دقيق، وهل أحاط أنيس بكلّ المعاجم العربيّة وجرّدها حتّى توصّل إلى تحديد عددها والتّنبّؤ بانقراض هذه الظّاهرة؟ أمّا عن حديثه عن التّعسّف في التّأويل فهذا ما لحضناه حقًّا عند بحثنا في أسباب النّشوء؛ فمثلًا نرى تكلّفًا في السّبب الذي نقله أحمد مختار عمر عن (Giese) بشأن كلمة جلل، فهذه الكلمة تعني بالعبريّة دحرج، ومن إيحاءات هذا الأصل بحسب زعم (Giese) حملت الكلمة في العربيّة معنيين متضادّين، عظيم وحقير، إنّ النّاظر في هذا التّفسير لا يخفى عليه ما فيه من تعسّف، فإذا سلّمنا بظاهرة الاقتراض بين اللغات وخاصّة الأخوات السّاميّات، فهل نستطيع أن نجزم بأنّ هذا اللفظ أو ذاك خاصّ بلغة من الأخوات والأخرى اقترضته منها، فهذا موضوع شائك لم يُحسم بعد، وإذا اقترضت لغة من أخرى فهل تمرّ العمليّة بهذا التّعقيد، فنقترض كلمة بمعنى دحرج ثمّ نتصيّد إيحاءاتها، ولو عدنا إلى لسان العرب نجده أورد معنى التّعظيم والتّحقير مع الشّواهد من أشعار العرب دون أن يدخلنا في هذه المتاهات. (ابن منظور، م. س، 31/3)، والأشدّ تعسّفًا من هذه التّأويلات، هو أن يكون في العربيّة معنًى وتقترض ضدّه من لغة أخرى فينشأ التّضادّ، وأمّا الأسباب الخاصّة بالتّفاؤل والتّهكّم والخوف من الحسد، فإنّها تأويلات لا تدخل في باب التّضادّ برأينا، إذ التّضادّ المجمع عليه، أن يكون هناك لفظ واحد لمعنى واحد مخصّص عند قبيلة، واللفظ نفسه يحمل معنًى آخر عند قبيلة أخرى، ويتمّ تبادل المعاني فيصبح لدى كلّ قبيلة معنيان للفظة الواحدة، فأمّا ألفاظ التّفاؤل والتّهكّم والخوف من الحسد، فتحمل معنًى واحدًا وتستخدم لغيره مجازًا.

يُحسب ل عمر أنّه اجتهد، فلفت نظرنا إلى ظاهرة الاقتراض بين اللغات وهي ظاهرة ملازمة لحياة اللّغة، وإلى قضيّة مهمّة وهي هل اللّغة العربيّة وحدها عرفت ظاهرة التّضادّ أم شاركتها أخواتها السّاميّات في ذلك؟

التّضادّ في اللغات السّاميّة: آثر البحث أن ينظر في إمكانيّة وجود التّضادّ في اللغات السّاميّة؛ إذ رأينا الكثير من الدّراسات تعمل على المقارنة بين السّاميّات لتبيان الأواصر بينها، وتكمن أهميّة مقارنة العربيّة بأخواتها السّاميّات في أنّها تؤدّي "إلى استنتاج أحكام لغويّة لم نكن لنصلَ إليها لو اقتصرت دراستنا على العربيّة فحسب" (عبد التّواب، 1977، 5)، وقد وقع في أيدينا من الدّراسات التي تناولت موضوع التّضادّ في إطار مقارنته باللغات السّاميّة، بضع صفحات من كتاب (التّضادّ في ضوء اللغات السّاميّة) وشذرات في بعض الكتب سننهل منها، نقف عند الكتاب الأوّل لنركّز على النّقاط الأساسيّة التي وردت فيه، بيّن الباحث أنّه لم يعثر على مراجعَ عبريّة أو سريانيّة تقول بوجود ألفاظ تدلّ على المعنى وضدّه في هاتين اللغتين، لكنّه وصل من خلال حديثه مع بعض اللغويّين العبريّين والسّريان، إلى وجود ألفاظ قليلة جدًّا تدلّ على المعنى وضدّه في اللغتين العبريّة والسّريانيّة، وقد أشاروا إلى أسباب نشوء هذه الأضّداد، فذكروا أنّ لكلّ لفظ معناه الخاصّ، و"أنّ الاستعمال لم ينصرف إلى المعنى المضادّ إلاّ لداعٍ بلاغيّ كالتّفاؤل، أو التّهكّم، أو اجتناب التّلفظ بما يُكره، أو يمجّه الذّوق، أو بما يؤلم المخاطب ممّا اصطلحت عليه اللغات الأوربيّة بتلطيف التّعبير"، وبيّن الباحث أنّه تمكّن من العثور على ألفاظ عبريّة وسريانيّة، تدلّ على المعنى وضدّه، ويخرج معظمها عن نطاق تلطيف التّعبير. (كمال، 1975، ص 3-4)، وفيما يلي عدد من الأمثلة عن التّضادّ في العبريّة وما يقابله في العربيّة:

"(أُون) العبريّة تطلق على القوّة، وعلى الألم، ومثلها (الأَونُ) العربيّة تطلق على الدّعة والمشقّة.

(بَرَخْ) في العبريّة تعني البركة والتّجديف، وفي العربيّة بارك من البركة وابترك تنقّص.

(بِسّر) في العبريّة مثل (بشِّر) في العربيّة تدلّ على التّبشير بالخير والتّحذير من الشّرّ" (طليمات، 2000، 220).

نتبيّن أنّ التّضادّ ظاهرة موجودة في بعض اللغات السّاميّة، ولم تنفرد اللّغة العربيّة وحدها بهذه الظّاهرة، إلا أنّ المعاجم وكتب اللغويين حفظت لنا الكثير من الألفاظ المتضادّة، ولم نعثر سوى على القليل من هذه الألفاظ في اللغات السّاميّة الأخرى، ما حدا ببعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنّ التّضاد موجود فقط في اللّغة العربيّة، فلم يكلّفوا أنفسهم عناء البحث عنه في الأخوات السّاميّات، أو أنّهم بحثوا وعزّت المراجع.

ونشير في هذا المقام على عجالة إلى أنّ هذه الظّاهرة لم توجد في العربيّة وأخواتها السّاميّات وحسب، وإنّما نجدها في اللغات الأجنبيّة، يقول أولمان: من المعروف أنّ المعاني المتضادّة للكلمة الواحدة، قد تعيش جنبًا إلى جنب لقرون طويلة، بدون إحداث إزعاج أو مضايقة. فالكلمة اللاتينيّة (Altus) مثلا قد يكون معناها: مرتفع أو: منخفض... وكذلك الشّأن في الكلمة الفرنسيّة الحديثة: (Sacer)والكلمة الإنكليزيّة (blessed) (مقدس وملعون)" (أبو حلفايّة، م. س 252).

التّضادّ في القرآن الكريم: هذا وقد بحثنا في إمكانيّة وجود التّضادّ في اللّغاتِ غير العربيّة، فإنّه حريّ بنا أن نبحث في وجود هذه الظّاهرة في القرآن الكريم، وهو الكتاب المقدّس المُعجز الذي لا يختلّ معنًى بين دفّتيه.

كشف البحث عن وجود التّضادّ في القرآن الكريم، إذ يقول أبو حاتم السّجستانيّ في مقدّمة كتابه الأضّداد: "حملنا على تأليفه أنا وجدنا من الأضداد في كلامهم والمقلوب شيئا كثيرا فأوضحنا ما حضرت منه، إذ كان يجيء في القرآن الظّن يقينا وشكا، والرّجاء خوفا وطمعا. وهو مشهور في كلام العرب" (عمر، م. س، 199) ويتابع فيقول: إنّه أراد أن يبيّن المعاني المتضادّة حتّى لا يختلط الأمر على من لا يعرف لغات العرب. وقد توصّل الباحث (فتحي

صالح، 2008، ص 25–28) إلى أنّ المتتبّع لألفاظ القرآن يجد فيها الكثير من الشّواهد الدّالة على وجود أمثلة التّضادّ، نحو لفظة (الشّراء)، التي تعني البيع والشّراء، قال عزّ وجلّ: ﴿ ومن النّاس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾، وفي آيّة ثانيّة: ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدّنيا بالآخرة﴾، فكلمة شرى في الآيّة الأولى بمعنى البيع وفي الثّانيّة بمعنى الشّراء.

نختم بحثنا، بتبيان أهميّة التّضادّ في اللّغة العربيّة، وبالنّتائج التي تمّ التّوصّل إليها.

إنّ أمثلة التّضادّ في لغتنا العربيّة ليست دليل ضعف في البلاغة، أو قلّة حيلة من العرب في توليد ألفاظٍ جديدة، وإنّما هي ظاهرة لغويّة تمتاز بالغموض والدّقة والرّقة، هو الغموض الذي يبعث فيك السّعادة حين تعيد النّظر فيه فتتبيّن المقصد، فللتضادّ دور في نموّ الثّروة اللفظيّة والاتساع في التّعبير، وفي إضفاء جماليّة من نوع خاصّ على النّصوص العربيّة.

النّتائج التي توصّل إليها البحث:

–الدّافع الرّئيس للتأليف في التّضادّ، هو الدّفاع عن اللّغة العربيّة –لغة القرآن–في وجه من ظنّ أنّ ظاهرة التّضادّ ثغرة يدخل منها لاتّهام العربيّة بقلّة البلاغة وكثرة الالتّباس؛

–كلا الفريقين المثبت والمنكر للظاهرة، ضليع بالعربيّة ولا ينقصه الاطّلاع لذا لم نمِل إلى فريق وندحض الآخر، وإنّما حاولنا تقديم نقد فيما ذهبا إليه؛

–الأصل في اللفظ أن يدلّ على معنًى واحد، وأدّت الظّروف سواء الاجتماعيّة أم اللّغويّة إلى بروز ألفاظٍ تحمل معنيين متضادّين؛

–التّعسّف في تأويل بعض الألفاظ لإدخالها في أمثلة التّضادّ، والتّعسّف في تأويل بعض الألفاظ لإخراجها من هذه الظّاهرة؛

–الرّأي السّائد حول مفهوم التّضادّ، والذي نرجّحه هو أنّ اللفظة حتى تعدّ من أمثلة التّضادّ ينبغي أن تستخدم بمعنى واحد في لهجة من لهجات العرب والمعنى الثّاني في لهجة ثانيّة، ثمّ تأخذ كلّ لهجة من الأخرى فينشأ التّضادّ..؛

–لا اعتبار للتضادّ بين اللّغات المختلفة، كأن يكون للكلمة في العربيّة معنى، وللكلمة ذاتها في الإنكليزيّة أو الفرنسيّة معنًى آخر، فأضمّن اللفظ العربيّ المعنيّين، وأدّعي أنّ الكلمة من ألفاظ التّضادّ؛

–لم نعدم وجود ظاهرة التّضادّ في اللغات السّاميّة والأجنبيّة؛

–التّضادّ ظاهرة حاضرة في القرآن الكريم؛

–اختلاف مفهوم التّضادّ بين القدماء والمحدثين، فهو عند القدماء: اللفظ الواحد الذي يدلّ على معنيّين متضادّين، وعند المحدثين هو لفظين مختلفين متضادّين؛

–التّضاد، دليل عمق ودقّة لا دليل فقر وقلّة بلاغة في العربيّة.

-المراجع:

-ابن الأنباري، محمد بن القاسم (1987)، **الأضداد**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم بيروت: المكتبة العصريّة.

-ابن سيده، علي بن إسماعيل (1996)، **المخصص**، تح: خليل إبراهيم جفال، بيروت: دار إحياء التّراث العربي.

-ابن فارس، أحمد (1997)، **الصّاحبي في فقه اللّغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، تح: أحمد حسن بسج، بيروت: دار الكتب العلميّة.

-ابن منظور، محمد بن مكرم (1414ه)، **لسان العرب**، ط3، بيروت: دار صادر.

-أبو حلفايّة، معتوق (2015)، **التّضاد في اللّغة**، مجلّة العلوم الإنسانيّة، ع27.

-أبي الطّيب، عبد الواحد بن علي الحلبي (1996)، **الأضداد في كلام العرب**، تح: عزة حسن، ط2، دمشق: دار طلاس.

-الأدويّة، ربيعة (2011)، **الأضداد في سورة البقرة (دراسة تحليليّة دلاليّة)**، رسالة ماجستير: جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلاميّة الحكوميّة مالانج.

-أنيس، إبراهيم (1965)، **في اللهجات العربيّة**، ط3، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة.

-بروكلمان، كارل (1977)، **فقه اللغات السّاميّة**، مقدّمة المترجم: رمضان عبد التّواب جامعة الرّياض.

-الجبوري، عبد الله بن أحمد (1973)، **الأضداد وموقف ابن درستويه منها**، المورد مج2، ع3.

-الجواليقي، موهوب بن أحمد (د.ت)، **شرح أدب الكاتب لابن قتيبة**، تقديم: مصطفى صادق الرّافعي، بيروت: دار الكتاب العربي.

-السّجستاني، أبو حاتم (1991)، **كتاب الأضداد**، تح: محمد عبد القادر أحمد، القاهرة: مكتبة النّهضة المصريّة.

-السّيوطي، عبد الرّحمن (1998)، **المزهر في علوم اللّغة وأنواعها**، تح: فؤاد علي منصور، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة.

-صالح، فتحي (2008)، **ظاهرة التّضاد في اللّغة العربيّة دراسة تطبيقيّة على المفضليات**، رسالة ماجستير: جامعة أم درمان..

-طليمات، غازي مختار (2000)، **في علم اللّغة**، دمشق: دار طلاس.

-عبد التّوّاب، رمضان (1999)، **فصول في فقه العربيّة**، ط6، القاهرة: مكتبة الخانجي.

-عكاشة، محمود (2002)، **الدّلالة اللفظيّة**، القاهرة: مكتبة الأنجلو مصريّة.

-عمر، أحمد مختار (1998)، **علم الدّلالة**، ط5، القاهرة: عالم الكتب.

-كمال، ربحي (1975)، **التّضادّ في ضوء اللغات السّاميّة دراسة مقارنة**، بيروت: دار النّهضة العربيّة.

-وافي، علي عبد الواحد (2004)، **فقه اللّغة**، القاهرة: دار نهضة مصر.

-يعقوب، إميل بديع (1982)، **فقه اللّغة العربيّة وخصائصها**، ط1، بيروت: دار العلم للملايين.